الاستقبال الأدبي ظاهرة تاريخية واجتماعية

مانفريد ناومان
ترجمة : عبد القادر بوزيده
جامعة الجزائر

Résumé

L'intérêt pour le lecteur et la lecture dans les études actuelles a laissé des traces profondes dans les concepts que nous associons à la littérature et les méthodes que nous utilisons pour l'étudier .

L'étude de ce domaine dépend de l'intérêt épistémologique du chercheur; et tels ou tels problèmes deviennent prioritaires selon la référence et l'approche.

Compte tenu de l'ampleur des questions liées au phénomène de la réception, il serait vain de chercher à faire des généralisations; et quand cela s'avère nécessaire, elles ne pourraient être que le résultat d'une coopération interdisciplinaire. Dans ce cas, il est recommandé plutôt d'analyser et de spécifier les problèmes qui résultent de point de vue nécessairement partiels Il serait par ex. erroné d'identifier les problèmes de la réception et ceux de la lecture même s'il existe des points d'intersection .

La lecture individuelle n'est qu'une forme particulière de la réception. Elle n'est pas une constante transhistorique de la réception, elle n'est devenu un phénomène massif qu'avec l'avènement du roman; et les théories que nous tirons de l'étude de la lecture ne doivent pas être généralisées à l'ensemble de la réception.

Elaborer une théorie de la réception pose des difficultés car nous ne possédons pas encore une histoire de la réception. Beaucoup de chercheurs ressentent la tentation de rechercher l'œuvre en soi et d'en faire une lecture idéale c.a.d. objective et adéquate.

Une telle lecture est utopique car en contradiction avec l'historicité de l'interprète.

Ceci ne veut pas dire renoncer à donner une signification à l'œuvre car c'est justement par les interpretations que les œuvres du passé peuvent être associées à la littérature du présent et acquérir par là une nouvelle efficacité esthétique et historique.

A coté des problèmes posès par la réception dans la diachronie, d'autres problèmes sont soulevés par la réception dans la synchronie. Pour aborder ces problèmes la science de la littérature doit utiliser des modèles, faute de quoi elle risque de se perdre dans des variantes allant jusqu'à l'infini. Ainsi on peut parler de la situation receptive fondamentale (correspondant aux relations données par l'acte individuel de reception), à quoi correspond de l'autre côté la situation productive fondamentale. on parlera aussi des catégories de l'œuvre, de l'émetteur, du destinataire, de l'acte de reception.

Un tel modèle trouve ses limites là où il fait abstraction des rapports littéraires, sociaux et historiques qui sont les médiateurs des actes de reception individuelle. Pour résumer ces rapports on parlera des "conditions de reception". Qu'il s'agisse du dialogue entre les auteurs et le public comme une composante qui transporte une relation sociale à l'intérieur des structures littéraires, ou des facteurs concernant la distribution littéraire, souvent négligés, sans raison valable, par les théories de la communication esthétique. Entre les deux termes : la création et la réception, se trouvent des institutions dont l'action est seule à créer la relation: la maison d'édition, le libraire, la critique, l'école, les concepts littéraires sur lesquels reposent l'activité de ces institutions, et qui influent sur la manière dont une œuvre littéraire doit être lue mais dont l'efficacité n'est pas éternelle et qui peuvent être mis en doute au fur et à mesure par les lecteurs, dans le processus ininterrompu de la lecture dans des conditions et des relations sociales déterminées.

في السنوات (...) الأخيرة، استقرت دراسة القارئ والقراءة والاستقبال نهائيا في الأبحاث الجارية حول الأدب. هذا الاهتمام الحاد بالقارئ يمكن أن يدفع إلى الظّن بأنه قد أهمل حتّى الآن. لكن الأمر غير ذلك. إذ يمكن أن نجد نصوصا تتحدث عن القارئ يرجع تاريخها إلى 50 أو 100 سنة خلت. و منذ أن تعودنا على النظر إلى الاستقبال باعتباره مشكلة، و بدأنا نقرأ النصوص التي عرفها تاريخ (الأدب المقارن) بالنظر إلى ما تقوله عن القارئ، أصبحنا نعثر باستمرار على وثائق تؤكد بأن من سبقونا لم يكونوا ينظرون إليها أبدا على أنها بريئة (...).

وهكذا كان "بول ستابفير" "Paul stapfer" يعترف، منذ ما يقارب ال 100 عام، بأن القارئ قد يكون هو الذي يصنع "الشهرة الأدبيّة"[1] وفي ألمانيا دافع "جوليان هيرش" (Julian Hirch)، وهو يتساءل في 1914 عن مصدر الشهرة الأدبيّة، عن فكرة مماثلة[2]. وبعد ذلك، كان "بول فان تيغم"يوصي بتوضيح العلاقات بين الآداب والكتاب والأعمال بواسطة استعمال نموذج يسمح بالتفريق بين "المرسل" و" المستقبل"، بين "أدب منتج" و "أدب مستقبل"، بين "الأديب أو البلد المنتج" و"الأديب أو البلد المستهلك"[3]. ويكفي للتأكّد من القيمة العمليّة لهذه المقدّمات المنهجية أن نشير إلى العدد الكبير من الدراسات حول "الاشتهار" والعلاقات الأدبية. ولسنا في حاجة حتى إلى ذكر سوسيولوجيا القارئ لتتأكّد من صحّة القول الذي يرى بأن القارئ أو الاستقبال ليسا اكتشافا جديدا.

لكن لا يمكن أن ننكر بأن القارئ في الدراسة الحالية، يحتل وضعا غير الوضع الذي كان يحتله منذ عشرين سنة. فالاهتمام بالقارئ أصبح ظاهرة عامة إلى درجة يمكن معها أن نعتبر هذه الشعبية إحدى الموضات التي تعبر من فينة لأخرى ما نسميه أحيانا علم الأدب. وفي هذه الحالة، فإن الاهتمام بالقارئ سيختفي إن آجلا أو عاجلا. لكن ظهور القارئ لم يضاعف عدد موضوعات الأطروحات الممكنة فحسب، بل ترك آثارا عميقة في المفاهيم التي نقربها بالأدب، وبالتالي في

المناهج التي نستخدمها لدراسته. لهذا فإنني أجرؤ على التنبؤ بأنه سيكون من الصعب استبعاد الاستقبال من بين المشاكل والقضايا التي يتناولها البحث.

تقدّم لنا اللسانيات إشارات تؤكّد أنّ هذا الرأي له ما يبرره. إن 80 % تقريبا من الأداءات هي حسب "هانس غليتز" "Hans Glinz"[4]، ذات طبيعة استقبالية، أي أنها توجد ضمن مجالات الاستماع والقراءة، و 20 % فقط هي أفعال كلام وكتابة. وفي حقل الكفاءة، نلاحظ في الوقت نفسه بأن القدرة على فهم نصّ شفوي أو مكتوب أنتجه الغير، أي القدرة الاستقبالية، هي أكثر بكثير من القدرة الإنتاجيّة، أي القدرة على التعبير بواسطة الكلام أو الكتابة. ويحتمل أن يكون رجحان الطاقة الاستقبالية أكبر في الميدان الأدبي. فحتّى الكتاب يقرأ ون أكثر ممّا يكتبون. ويدخل حديث الباحثين في علم الأدب هو أيضا في مجال الاستقبال.

وتكمن المشكلة في معرفة الكيفية التي ندرس بها هذا المجال. إنّ حل هذه المشكلة يتوقّف إلى حدّ بعيد على طبيعة الاهتمام المعرفي للباحث. وهنا يبدأ البحث المتعلّق بالاستقبال (...) في التميّز إلى اتجاهات تؤدي غالبا إلى حصول نقاشات حادّة، ومن الواضح أن هذا المشكل أو ذاك سيحظى بالأولوية حسب ما إذا كانت المنطلقات هي السيميائية أو النظرية اللسانية للاتّصال، أو تحليل النص، أو الهيرمنيوطيقا، أو علم النفس أو علم الاجتماع.

ونظرا للاتساع الكبير والمحيّر للمسائل المرتبطة بظاهرة الاستقبال، فإن محاولة وضع الحصيلات يبدو أمرا عديم الجدوى. وفي حالة ما إذا كانت مستحبة، فلا يمكن أن تكون إلا نتيجة لتعاون بين اختصاصات متعددة، وهو أمر لازال يعيق تحققه غياب شروط كثيرة في العلوم الاجتماعية وعلوم الإنسان.

أمام هذه الوضعيّة، يكون من الأفضل تجنّب التسرّع في البحث عن التّعميمات، والاهتمام بتحليل وتمييز المشاكل التي تنتج عن وجهات نظر هي بالضرورة ذات طابع جزئي. وإنه لتعميم متسرّع أن نطابق بشكل سريع أو ضمني بين مشاكل

الاستقبال ومشاكل القراءة. ورغم وجود نقاط التقاء، إلا أن المشكلين لا ينطبقان على نفس الحقل: فمن جهة يجب أن يتميّز البحث حول الاستقبال، باعتباره جزءا من علم الأدب، عن تاريخ وسوسيولوجية وسيكولوجيّة القراءة والقارئ، أي عن دراسات تهمل بهذا القدر أو ذاك نوعية النصوص المقروءة. ومن جهة أخرى، فإن المشاكل التي يطرحها الاستقبال الأدبي هي أوسع بكثير من تلك التي ترتبط بالأعمال التي تظهر اليوم وفي أغلب الأحيان، في صورة نص مكتوب يستتبع القراءة الفردية شكلا للاستقبال. فالظهور الكثيف لأعمال في شكل كتب يجب ألاّ ينسينا الحقيقة التالية: وهي أن القراءة ليست سوى شكل من بين أشكال أخرى للاستقبال. (...) وتتزايد اليوم الحالات التي تحفظ فيها الأعمال في أشكال غير الكتاب. والأعمال الأدبية لا تقرأ فقط، بل تسمع وتشاهد أيضا وحتّى عندما أصبح الكتاب موجودا وعندما لم تعد القراءة ظاهرة نادرة، كانت الأعمال تسمع أكثر ممّا تقرأ، إذ كان الناس يقرأونها لبعضهم البعض. كما أن النوع الأدبي الذي هو الدراما لا ينتمي إلاّ جزئيا إلى حقل القراءة؛ و لم يصبح الشعر فنّا مقروءا إلاّ مؤخّرا.

و لم تنتشر القراءة وتصبح ظاهرة جماهيرية حقّا إلا مع ظهور الرواية. وقد أصبحنا نعرف بالتأكيد، بفضل أعمال فولفغونغ ايزر، بأنّه يوجد دائما، في الرواية، قارئ ضمني؛ وهو ما يدفع إلى الافتراض بأنّ القراءة الفردية قد أصبحت نقطة مرجعية للإنتاج الأدبي. و لكن عندما نعتبر أن القارئ الضمني هو عنصر ملازم مهيكل لكل أصناف النصوص، فهذا يعني أننا نفترض بأنّ القراءة الفردية هي شكل استقبالي ثابت يستعلي على التاريخ. غير أن الواقع يختلف عن ذلك. والقراءة الفردية ليست سوى شكل خاص من أشكال الاستقبال. فالنّظريات التي نستنتجها من هذا الشكل ليست إذن نظريّات الاستقبال، بل نظريّات شكل خاصّ من أشكال الاستقبال. و لم يوضع حتى الآن تاريخ لهذا النشاط الاستقبالي الذي هو القراءة الفرديّة، ولا بالأحرى تاريخ لمختلف أشكال الاستقبال الأخرى.

عندما نتحدّث عن "تاريخ الاستقبال" فإننا نعني، بصورة عامة، الأعمال التي تدور حول تاريخ استقبال بعض الأعمال، وبعض الكتّاب أو التيارات أو حقب كاملة.

ولنعيد بناء هذه التواريخ فإنّنا نمتلك أوّلا الأعمال باعتبارها تحمل آثار استقبال أعمال أخرى، وهو ما يقودنا إلى قضايا ما يسمى بـــ" الاستقبال المنتج"؛ وبعد ذلك كل النصوص الأخرى المتعلّقة بالمادة الأدبية التي يقع تحليل تاريخ استقبالها. والمسائل النظرية والعملية التي تثيرها هذه الدّراسات معروفة. فالمشاكل ذات الطبيعة العمليّة تنبع من كون أغلبيّة نتائج الاستقبال تخزن بصمت من قبل القرّاء. لهذا فإن المصادر التي بين أيدينا لا تؤدي إلاّ نادرا إلى استخلاص نتيجة واضحة حول التاريخ الحقيقي للاستقبال. كما أن الحصول على نتيجة بخصوص الآثار التي تمخضّت عن عمليّات الاستقبال هي أمر أكثر ندرة. والمشاكل الناتجة عن الطابع المتناقض للشّهادات التي تقدّمها عمليّات الاستقبال تؤدي إلى تعقيدات أكبر. يميل بعض الباحثين إلى البحث عن العمل في حدّ ذاته وتجاوز التجسيدات اللاّحقة له، بواسطة قراءة مثاليّة، أي موضوعيّة ومناسبة. غير أن مثل هذه القراءة شيء وهمي لأنّه يتعارض مع الطابع التّاريخي للشخص الذي يؤول النص (...) هذا الكلام لا يعني التّخلي عن إضفاء أيّ معنى على النّص؛ ذلك أن هذه التأويلات بالتّحديد هي التي تمكن من ضم أعمال الماضي إلى الأدب الحاضر، وجعلها هكذا تكتسب فعاليّة جماليّة وتاريخيّة جديدة. لهذا، فإنّنا نشك في جدوى البحث التاريخي حول الاستقبال إذا لم يؤسس على تأويل للعمل باعتباره موضوعا من موضوعات هذا البحث. وفي حالة كهذه فإنّ العمل الذي تدور حوله الشّهادات يوضع بين قوسين. وفي أثناء ذلك تحلّ المشكلة التّأويلية، إذ ليس هناك من حاجة ولا من ضرورة للحديث عن أهميّة راهنة يكتسبها العمل إذا كنّا قد باعدنا بيننا وبينه. وهكذا تتبيّن

الحيويّة التي لازالت تتمتّع بها النزعة التاريخيّة والوضعيّة القديمتان واللتان ظلّتا قائمتين حتى بعد ظهور مشكل الاستقبال موضوعا للبحث. ومثلما كان العمل سابقا يذوب في عمليّات النّشوء، أصبح اليوم يختفي في عمليّات الاستقبال. وتعوّض السلسلة الكميّة الّتي تتمثّل في الأسباب التي تقف وراء نشوء العمل بسلسلة كميّة أخرى هي الآثار الناتجة.

بعد الإشارة إلى بعض المشاكل التي تموضع الاستقبال في المحور التّعاقبي، نعالج الآن بعض المشاكل التي يطرحها الاستقبال في المحور التّزامني.

سواء تعلّق الأمر بالقراءة الفرديّة أو أيّ شكل آخر من أشكال الاستقبال، فإن الشيء المميّز الذي يمنحه الأدب لا يمكن تحقيقه إلا بفضل اتّصال أفراد ملموسين بأعمال ملموسة. يمكن القول إذن بأن العلاقات الناجمة عن فعل الاستقبال الفردي تشكّل وضعيّة الاستقبال الأساسيّة. وتقابلها في الجهة الأخرى وضعيّة الإنتاج الأساسيّة. وكما أن الكتاب لا ينتجون في البداية أدبا بل أعمالا، فإنّ القرّاء أيضا لا يلتقون في البدء بالأدب بل بأعمال.

وكلما اقتربنا من المشاكل التي يطرحها الطابع الفردي للنشاطات الأدبية ومنتوجاتها، فإننا سنجابه بعناصر مصادفة، وتلقائية وتفرّد. إنّ فعل الإنتاج والاستقبال الفردي، والعمل المعزول ينطويان على توجيهات وسمات وتنويعات لا حصر لها. و إن علم الأدب، في حالة ما إذا كان يرغب في بلوغ تعميمات حول وضعيّة الاستقبال الأساسيّة، عليه أن يستخدم نماذج، مثلا نموذج حيث تكون كلّ خصائص الأعمال مجملة في مقولة العمل (Oeuvre)، وتكون خصائص الكتاب مجملة في مقولة المرسل، وخصائص المستقبلين مجملة في مقولة المرسل إليه، وكل خصائص العلاقات بين المرسل والمرسل إليه في مقولة فعل الاستقبال أو فعل القراءة.

هذا النموذج يمكن أن يفضي إلى نتائج في حالة ما إذا كان موضوع الدّراسة يتوفّر على بعض الثوابت التّاريخيّة. لكن هذا النموذج، بالنظر إلى مقاربتنا، يصبح غير منتج إذا ما تجاهل العلاقات الأدبيّة والاجتماعيّة والتّاريخيّة التّي تمثّل وسائط أفعال الاستقبال الفردي. ولتلخيص هذه العلاقات، فإني أقترح استعمال عبارة "ظروف الاستقبال"، التي تعني الإطار الذي تحصل فيه أفعال الاستقبال الفرديّة في لحظة تاريخيّة معيّنة وفي وسط اجتماعي معيّن.

ومن بين العناصر المكوّنة لهذه الظروف، نجد في المقام الأوّل الأعمال التي يشكل مجموعها الأدب المقدّم للجمهور في كلّ طور من أطوار التشكيلات الاجتماعية. ودون أن أشكّك في القيمة الابستيمولوجيّة للدّراسات حول مجموعات المستقبلين، فإني أرى أنّ اهتمامنا لا يحتّم علينا أن نحوّل علم الأدب إلى علم القارئ. وهذا ما يبدو غير ضروري خاصّة وأننا نعتبر الإنتاج الأدبي عمليّة تظهر فيها الاحتياجات التي تنشأ في محور الاستقبال باعتبارها إحالات موسومة إيجابا أو سلبا في محور الإنتاج؛ بحيث أن الأدب المؤلف في مرحلة معيّنة لا يشهد على خصوصيّة المؤلفين فحسب، بل كذلك على احتياجات القرّاء ومصالحهم وكفاءاتهم. لذا فإن مختلف الخصائص التي تميّز آثارا أو مجموعة أعمال مؤلّفة تحتوي دائما على بعض خصائص القرّاء أو مجموعات الاستقبال. وعليه فإن التحليل الذي يأخذ بعين الاعتبار هذه العلاقات يجب أن ينظر في الحوار بين الكتّاب والجمهور باعتباره مكوّنا ينقل علاقة اجتماعيّة إلى قلب البنيات الأدبيّة، ويمثّل قوّة فاعلة في التّطورات الأدبية. ويجب ألاّ يبقى هذا التحليل حبيس ملاحظات عامّة عن التفاعلات بين الإنتاج والجمهور، بل يجب أن يتساءل بطريقة تاريخيّة ملموسة حول توجّه ونوعيّة ونتائج هذه التفاعلات. وسنكتشف عندها بأن الحوار بين الكتّاب والقرّاء هو حوار شديد التناقض وبأن هذه التناقضات بالتحديد هي التي تساهم في تطوّر العملية الأدبية.

ونعرف أنه لا يمكن الحديث بصدد هذا الحوار، عن تآلف استطيقي، وهذا على الأقل منذ بودلير الذي كان يقوّم العلاقة بين الإنتاج الفني ومحور الاستقبال في عصره على النحو التالي : "إن الفنانين يشربونه هذا الذوق، هذا صحيح؛ وإن هذا العصر يفرض عليهم تلبية هذا الاحتياج، هذا صحيح أيضا؛ ذلك أن الفنّان إذا كان يبلّد ذهن الجمهور، فإن هذا الأخير يرد عليه بالطريقة نفسها. إنهما الحدّان المتلازمان اللّذان يؤثران على بعضهما البعض بالقوّة نفسها"[5].

هذا الانتقاد الذي لم يكن بودلير أوّل من عبر عنه بخصوص الاتّصال الأدبي، يعود للظهور باستمرار في كلّ برامج الطلائع التي يتمثل هدفها بالتحديد، أغلب الأحيان، في تعويض أنماط الاتصال القديمة بأنماط جديدة، وتعويض المرسل إليه الموجود بمرسل إليه جديد، تأمل الطلائع في ظهوره بفعل تأثير الأعمال التي تنتجها. ونعرف أن هذه الطلائع توظف لهذا الغرض أغلب الأحيان استراتيجيات قصوى من استراتيجيات الفعل الجمالي التي تفضي إلى ظهور أعمال تكون خصائصها التّواصليّة محدودة أحيانا.

وهكذا فقد مورست، في الأدب الفرنسي الحديث، "كتابة" هدفها المعلن هو إنتاج نصوص مشفّرة تشفيرا مفرطا؛ هذه الكتابة هي النقيض لأدب يوجّهه سوق الأدب نحو قيم الاستهلاك والاتصال فحسب. وإذا لم تتمكّن برامج تعمية النصوص من الحد من جاذبية هذا النوع من الأدب، فإنها استطاعت رغم ذلك إبراز المشاكل التي تصطدم بها النظريات التي تثمن الوظيفة التواصلية وتهمل نوعية النصوص التي تقدّم للجمهور. وقد وجدت هذه النظريات صعوبات كبيرة في التميّز عن ممارسة جماليّة أصبحت فيها إعادة إنتاج انتظارات القارئ هي القوّة المحركة للإنتاج. ولا شك أنّ أعمالا سهلة الإدراك قد تعبئ هي أيضا بعض التجارب الجمالية وتثير لدى الاستقبال أجمل المشاعر والانتشاء الجمالي.

وإنه لمن المشروع الدّفاع عن الاتّصال الأدبي غير المعقّد في مواجهة النّصوص التي يقف في أساس إنتاجها مبدأ الغموض. ولكنه من المشروع أيضا، وبالدرجة نفسها، الإيمان بأن الوظيفة التواصليّة تثير مشاكل عندما تفضي إلى النتائج التي كان بودلير يشتكي منها، وهو محقّ في ذلك.

وتمثّل العلاقات التي تبرز في مستوى التّوزيع الأدبي المجموعة الثانية من العوامل التي تكوَن شروط الاستقبال. إن نظريات الاتصال الجمالي تهمل غالبا هذا المجال وتزعم أنه لا يوجد في الفاصل المكاني والزماني الواقع بين العمليّات الإنتاجيّة والاستقبالية، إلاّ الآثار، بحيث يحصل لنا الانطباع بأن هذه الآثار، بفضل خصائصها الاتصاليّة، تستطيع أن تغطّي من تلقاء نفسها الفاصل بين نهاية الفعل الإنتاجي وبداية فعل الاستقبال. ولكن فولفغونغ كايزر نفسه كان يدرك بأنه من الأكيد أن الحياة الأدبية لعصر من العصور تحتوي الإبداع وتحتوي أيضا، عندما نصوب أنظارنا في الاتجاه المقابل، الاستقبال. وبين هذين الحدين توجد المؤسسات التي تستطيع وحدها إقامة العلاقة : دار النشر التي تستلم المخطوط من يدي المؤلّف عندما يعجبها ذلك المخطوط، ثم تطبعه وتنشره، والكتبي الذي يستلم ذلك الكتاب من الناشر لينقله إلى القارئ. وبين الطرفين يوجد النقد، الذي لم يصبح بعد مؤسسة، هذا النقد يستعرض ويقوم المؤلف ويؤثّر هكذا بطريقة أو أخرى في عمليّة الاستقبال. إن الإبداع، والنشر والنقد والاستقبال هي بلا شكّ الأطراف التي يساهم عملها المشترك في تأسيس الحياة الأدبية."[6].

هذا الوصف ليس وافيا؛ وإنّه لأمر لافت للنظر أن المدرسة غائبة منه، وأن مؤسسات السوق الأدبية لم تذكر إلاّ من طرف خفيّ. ورغم ذلك فهو وصف يبيّن لنا بأن استبعاد قطاع التوزيع يحرم تاريخ الأدب من أحد مكوّناته.

وقد يعود نسيان هذا الحقل إلى حدّ ما إلى الفكرة التي ترى أن العوامل التي يمكن قياسها والتي تدرسها سوسيولوجيا الوقائع الأدبيّة" هي التي تلعب دورا في هذا الحقل. وحتّى لو كان ذلك صحيحا، فليس هناك من سبب وجيه لاستبعاد حقل التّوزيع من دائرة الاهتمام. إن البحوث والتأويلات في مجال تاريخ الأدب لا يمكن إلاّ أن تستفيد من عمل توثيقي يشمل حتى العلاقات التي يمكن قياسها والتي ترتبط بالوسط الذي تظهر فيه النصوص. لكن المؤسسات، ليست هي وحدها التي تشتغل على مستوى الفاصل الواقع بين عمليّات الإنتاج والاستقبال، بل هناك أيضا التّصورات الأدبيّة التي يرتكز عليها نشاط تلك المؤسسات. هذه التّصورات تؤثّر بعد في انتقاء المخطوطات المعدّة للنشر كما تؤثر على الأحكام النقدية. فعلى أساس هذه التصورات تتخذ القرارات بخصوص آثار الماضي إذ تنتقي تلك التي سيعاد طبعها. وأخيرا فإن هذه التصورات تؤثّر في تكوين الأفكار حول الطريقة التي يتعيّن أن يقرأ بها عمل ما (...).

وعلى العموم، يمكن أن نلاحظ بأن أفعال الاستقبال الحاصلة في المجال الفاصل بين الأثر المنتج والأثر المستقبل، تشكّل نظام نشاطات يؤدي وظائف ميتا-اتصالية بالنسبة لأفعال الاتصال الابتدائية.

إن الأفعال الميتا-اتصالية الأكثر إفادة بالنسبة لعلم الأدب هي بلا شكّ تلك التي تفضي إلى نصوص منطوقة أو مكتوبة تكون وظيفتها المساهمة في إقامة نماذج جمالية أو فكرية للاستقبال الفردي. وحتّى هذه اللحظة، لم تأخذ في الحسبان تقريبا كنماذج للاستقبال إلاّ تلك الأعمال المستقبلة أو الانتظارات المتكونة من الأعمال المقروءة، وأحيانا أيضا استعدادات القرّاء الناجمة عن موقعهم الاجتماعي. ولست أبالغ إذ أقول بأن معارفنا التي تحيل على تفاعلات الاتصال والميتا-اتصالي ليست عميقة بالقدر الكافي. وقد يكون من المفيد، لتحديد التّأثير الذي تمارسه النصوص على الأعمال باعتبارها نماذج للاستقبال، إعادة بعث المقاربات التي صاغتها

مدرسة براغ حول دراسة الأنماط الجماليّة وذلك بتوسيع دائرة التّفكير لتشمل مسألة المضامين والمصالح الإيديولوجيّة التي تحملها تلك الأنماط. وقد أحال جورج جاغر (Georg Jager) في دراسته حول استقبال "فرتر"، أحال مباشرة على موكاروفسكي عندما حاول الربط بين طرق تجسيد الموضوع الجمالي ووعي المجموعات الاجتماعية[7]. ولا شكّ أنّ تكريس طرق الاستقبال أو شفرات القراءة هذه هو أحد وظائف التعليم الأدبي[8]. وقد برهن مانفريد برونك (Manfred Braunack)، في الدراسات التي قام بها حول استقبال المسرح الطبيعي في ألمانيا، على الوظيفة التي يؤديها النّقد الأدبي لتأسيس أنماط منظمّة لاستقبال تيّار أدبي معاصر[9].

ونشير أخيرا إلى كتاب هايتز توما(Heinz Thoma) الذي درس استقبال تيار الأنوار الفرنسية في التّاريخ الأدبي للقرن الـ XIX (10). نلاحظ في هذه الدراسة، الموثقة توثيقا رائعا، بأن هناك قواعد للقراءة ليس بالنسبة لبعض الأعمال، أو بعض المدارس أو التيارات الأدبيّة فحسب، بل كذلك بالنسبة لعصور أدبيّة بأكملها. ويبيّن كتاب هايتز توما أيضا بأن تواريخ الأدب قد تكون هي التي تلعب دورا خاصا في تكريس شبكات الاستقبال الواسعة هذه.

كما يجب ألاّ ننسى بأن تأويلات و تحليلات النصوص تساهم هي أيضا في صياغة نماذج الاستقبال. بل إن هذا هو أحد وظائفها الأساسيّة. هذه النماذج يقع التشكيك في صلاحيتها من أعمال جديدة لم تعد قواعد القراءة المقترحة مناسبة لها. كما يقع التشكيك فيها من قبل القرّاء الذين يمنحونها، أغلب الأحيان، مدلولات انطلاقا من تجاربهم الخّاصة التي ليست مستقلّة عن الظروف والعلاقات الاجتماعيّة. وإنّه لمن الأكيد أن أغلب القرّاء بل ربّما أيضا أغلب الكتّاب، لا يساهمون في العمليّة الميتا-اتصاليّة التي يقيمها علم الأدب. لكن هذا لا يعفينا من العمل على تقديم اقتراحات من أجل فهم وتقويم الأعمال، أي من أجل تجسيد معانيها. وإنّ "مجموعة برلين" تتفّق تماما مع ممثّلي "مدرسة كونستانس"

عندما يلحون على أهميّة الهيرمنيوطيقا التاريخية ويحدّدون لها مهمّة جعل أدب الماضي في متناول تجربتنا الحاضرة. وإن اختلاف هذه التجارب وبالتالي اختلاف نتائج الممارسات الهيرمنيوطيقية الشديدة التنوّع هي مسألة أخرى. ولكّني متأكّد تماما بأننا متفقّون على ضرورة تفادي الخطأ المتمثّل في الظّن بأن الأدباء ينتجون الأدب ليوفّروا لعلم الأدب موضوعات للنقاش، أو أن مغزى نشاطنا يتمثل في حبس الأدب في شفرة سريّة لحمايته من الاستعمال الذي يخضعه له القرّاء في حياتهم اليوميّة. وقد ظهرت فكرة شبيهة في مقدّمة للدراسات المقارنة، (...)، تؤكّد أن قراءة "القارئ السلبي"هي عمليّة" تتلاشى خلالها الطاقة الأدبية التي يكون العمل مشحونا بها "[11] ولو كان هذا صحيحا لأصبح من المنطقي أن نحد من هذا التلاشي المضّر للطاقة الأدبيّة الذي يتسبب فيه أغلب القرّاء غير الأدباء باتخاذ إجراءات صارمة للحد من ظاهرة القراءة. وإذا كان البحث حول الاستقبال قد وصل إلى نتيجة، فهي أنّ مثل هذه الإجراءات ستكون مضّرة للأعمال الأدبيّة وللأدب.

الهـــوامش

1. Paul Stapfer : *Des Réputations littéraires* Essais de mirale et d'histoire Première Parie 1893.

2. Julien Hirsch : *Die Genesis des Rhumes* , Leipzig 1914.

3. Paul van Tieghaem : *La littérature comparée,* Paris 1951

4. Hans Glinz : *Textanalyse und Verstchenstheorie* I Frankfurt a . M. p. 46-47

5. Charles Baudelaire: *Salon de 1859, in :* Œuvres complétes, Pléade, t. II , p.615-616

6. Wolfgang Kayser : *Das literarische Leben der Gegenwart ,* in : Deutsche Literatur in Unserer zeit , Gottingen 1959 , S. 5.

7. Georg Jager : *Die Werterwirkung. Ein rezeptionsaesthetischer M odelfall, in* : Historizitat In : Sprach-und Literaturwissenschaft. Vortage und Berichte der Stuttgart

Germanistentagung 1972 . in verbindung mit H.Fromm u . K .Richter hreg . von W.Muller Seidel , Munchen 1974 , 389-409.

CF. Roger Fayolle : *Sur l'origine de nos opinions littéraires (*Pralinés de l'enseignement de la littérature en France), in pratiques .Théorie / Pratique / Pédagogie 1974 .

9. Manfred Brauneck : *Literatur und öffentlichlceit im ausgehenden 19.Jahrhundert.*

Studien zur Rezeption des naturalischen Theaters in Deutscland, Stuttgart 1974.

10. Heinz Thoma : *Aufklarung und nachrerevolutionares Burgertum In Frankreich* .

Zur Aufklarungsrezeptio in der franzosischen Literaturgeschichte des 19. Jahrhunderts (1794-1914), Heidelberg 1976 .

11. Claude Pichois et André . M. Rousseau : *La littérature comparée,* Paris, 1967, p.73.